موجة ثانية من النقد لإدارة بوش تجتاح واشنطن!

02-3-2004

واليوم، وبشكل لم تعرفه أمريكا منذ العشرينيات، أصبحت هناك طبقة لا بأس بها تمتلك من الثروة ما يكفي لتشكيل سلالات حاكمة بالفعل. واستطاعت هذه الطبقة بوسائل عديدة أن تمزج بين الإسهامات المالية السياسية وعملية التشكيل الهاديء للثقافة مثل ترويج القيم الأرستقراطية أن توجد بيئة مفضلة لطموحات السلالات الحاكمة.

أُعطيت شركة هالبيرتون (التي جعلت ديك تشيني ثريا) عقودا بمليارات الدولارات من دون أي مناقصة أو منافسة في العراق المحتل. كما أن هاليبرتون كانت تتقاضى من الحكومة الأمريكية أسعارا عالية جدا للبنزين في العراق مقارنة بأسعارها في المنطقة. هالبيرتون تنكر ارتكابها لأي تجاوزات، وتقول إن أسعار البنزين المرتفعة الذي باعته للسلطات الأمريكية في العراق هي نتيجة للأسعار المرتفعة التي دفعتها للمورد الكويتي لهذا البنزين، غير أن هذا ليس صحيحا، فهالبيرتون قالت إن تكاليف نقل البنزين، لسبب أو لآخر، أعلى بكثير من التكاليف في أي مكان آخر، لكن السؤال الحقيقي هو لماذا اختارت الشركة هذا المورد بعينه، وهو شركة ذات خبرة محدودة في مجال النفط اختيرت بشكل غامض لتكون المورد الوحيد للبنزين بعدما تبين أنه مناقصة لم تتبع فيها الإجراءات المتعارف عليها. لماذا حصلت على هذا العقد؟. في أي إدارة أمريكية سابقة - على الأقل في السنوات السبعين السابقة -، تعتبر مثل هذه العلاقة المشبوهة بين الحكومات الأجنبية والشركات الخاصة والثروات الشخصية لأناس داخل الإدارة أو مقربين منها، فضيحة حتى يثبت العكس، غير أن ما يقوله كيفن فيليب في كتابه الجديد "سلالة أمريكية"، هو أن هذا التداخل يبين السياسة العامة والمصالح الذاتية الشخصية أصبح عملا إجرائيا معياريا في ظل الإدارة الأمريكية الحالية.

إن كتاب "سلالة أمريكية" وكتاب رونساسكيند الجديد "ثمن الولاء" يمكن اعتبارهما بمثابة الموجة الثانية من الأعمال النقدية لبوش. الموجة الأولى التي تضمنت على سبيل المثال "بوش المهزوز" لمولي ايفنز و"أكاذيب كبيرة" لجوكوناسون و"أكاذيب جورج دبليو بوش" لديفيد كورن تتحدث كلها عما فعله جورج بوش في السنوات الثلاث الماضية. غير أنها لا تقدم سوى تفسير محدود عن كيف ولماذا فعلت إدارة بوش. أما الكتب الجديدة فتمضي إلى أعماق أكبر في محاولة الإجابة عن السؤال المحير عما يحدث للولايات المتحدة. رون ساسكيند، محرر التحقيقات المعروف، يقدم نظرة مفصلة ومثيرة عن كيفية صنع إدارة بوش لساساتها. أما كيفن فيليب المحلل الاستراتيجي الجمهوري السابق الذي يشعر بأن حزبه خان المبادئ التي يرفع شعاراتها، فيحقق في تاريخ سلالة بوش ويقول إن تاريخ هذه العائلة يقدم لنا المفتاح لفهم دوافع جورج بوش بل وأساليبه في الحكم. ويدرك فيليب أن البعض سينكر عمله باعتباره نوعا من "نظرية المؤامرة"، غير أنه يقول إن مثل هذه المخاوف يجب إلا تمنعنا من النظر في التاريخ العائلي لأولئك الناس الذين يحكمون أمريكا الآن. ويتابع: "القلق من التفكير التآمري يجب ألا يعيق تحقيقاتنا بطريقة تشل التفحص المتزن".

ولتحقيق هذه الغاية فإن فيليب يعرض علينا: "صورة غير عادية لعائلة عظيمة (عظيمة بمعايير القوة وليس بالمعايير الأخلاقية) استطاعت أن تبني لنفسها قاعدة على مدى القرن العشرين في الدهاليز الخلفية لعالم الصناعة العسكرية الجديد وبعلاقة وثيقة مع مؤسستي الاستخبارات والأمن القومي المتناميتين". جورج دبليو بوش، سليل هذه العائلة، هو الرئيس الأول فيها الذي "ورث" الرئاسة. وقد ازدهرت أوضاع أربعة أجيال من عائلة بوش باستغلال علاقاتها العامة، لدفع تجارتها، مثلما استغلت تجارتها للتقدم في عالم السياسة.

التاريخ العائلي لسلالة بوش يساعدنا في فهم واحدة من أكبر مآسي التاريخ السياسي الأمريكي. حين دخل بوش مكتب الرئاسة عام 2001، برز توجهه سريعا في إصرار النظام الجديد على اليمين الإيديولوجي على الرغم من افتقاره لأي تفويض وطني. فالذي استعادته هذه السلالة من وجهة نظرها الخاصة هو ارثها المستحق، إنها سلالة معتادة على الامتيازات: "في أواسط القرن العشرين" أصبحت العلاقات والمحاباة الرأسمالية هي الاستثمار الاقتصادي للسلالة، مع التركيز على مكاسب التمويل والولاء السياسي الغريزي لأعمال الاستثمار. لم تنتج سلالة بوش رؤساء جامعات أو شخصيات عمل اجتماعي ولا علماء ولا مقاولي إنشاءات، وبشكل عام فإن هذه السلالة أصبحت على نحو شبه حصري من أصحاب شركات التمويل. كما توصي هذه المعادلة، فإن سلالة بوش تختلف عن باقي العائلات الأمريكية التي جمعت بين الثروة والتميز السياسي. إذ فيما يغمر عائلتي كينيدي وروكفلر شعور بالاستحقاق، فإنهما يبديان أيضا إحساسا بالتزام "النبل" (وهو صفة مما يمكن للمرء أن يسميها الحافز على رد الجميل)، عبر الإسهامات في العمل الخيري والخدمات العامة. أما سلالة بوش فلا تعرف هذا الحافز، فليس هناك من دعاة لعمل الخير أو الإصلاح فيها، فأبناؤها يسعون وراء المناصب العامة، لكنهم يشعرون دائما بأن الجمهور قد وجد لخدمتهم.

وإن سياسات بوش الابن في التخفيضات الضريبية وحتى التخلص من معاهدة كيوتو كانت تصب في صالح الأغنياء وصناعة الطاقة، وكما يقول ساسكيند في كتابه "ثمن الولاء" فإن جورج بوش يبدي ازدراء عميقا لقضية الإصلاح التجاري داخل الشركات. لكن ربما كان الأهم من ذلك هو أن تاريخ السلالة قد شكل السياسة الخارجية لبوش، كما يقول فيليب. غير أن الصلات السياسية ربما كانت أكثر أهمية، إذ إحدى الجوانب التي يمكن تقييم سياسات بوش الابن الصدامية في العالم العربي من خلالها هي أنه يرفض الاستراتيجية الأمريكية التقليدية القائمة على إقامة تحالفات مع أنظمة "الشرق الأوسط"، لكن من الذي كان وراء وضع هذه الاستراتيجية؟ إن قلة فقط شاركوا في هذه العملية، ومن أبرزهم جورج بوش الأب، حيث ساهم فيها وهو مدير لـ "سي.آي.ايه" ثم

وهو نائب للرئيس ثم وهو رئيس حينما تجاوز صدام حسين الخط المرسوم له. ويروي فيليب بعض القصص الغريبة، فيقول إنه قد يكون هناك أساس للشائعات القديمة القائلة إن عملاء جمهوريين لهم علاقاتهم بـ "سي.آي.ايه" قد تفاوضوا مع القادة الإيرانيين لتأجيل إطلاق سراح الرهائن عام 1980 لضرب فرص الرئيس الديمقراطي جيمي كارتر في الفوز برئاسة ثانية، غير أن أكثر القصص إثارة هي سرده لما يصفه بـ "عراق-غيت"، حيث لم يكتف المسئولون في إدارة ريغان وإدارة بوش الأب بتزويد صدام حسين بالسلاح وغض الطرف عن استخدامه للأسلحة الكيماوية فحسب، بل إنهم أوضحوا أنهم لن ينزعجوا منه إذا احتل جزءا من الكويت، وهي الإشارة التي فهمها صدام على أنها رخصة له لابتلاع الكويت بأكملها.

ويبقى السؤال الجوهري ليس عن دوافع سلالة بوش، وإنما كيف تأتى لهذه السلالة أن تبلغ هذا القدر من النفوذ؟

هنا يقدم فيليب جوابا جزئيا، ويقول إن هناك ثلاثة مرتكزات لنظرية فيليبس.. أولا أثر اللامساواة الاقتصادية المتنامية جدا والتي أدت إلى "تحويل أمريكا إلى إقطاعيات لسلالات مالكة"، ولتبسيط الفكرة يقول إن النخبة الاقتصادية قد أصبحت أكثر نخبوية بكثير مما كانت عليه قبل جيل من الآن، فمنذ أواخر السبعينيات استطاعت الشريحة العليا الاقتصادية التي تمثل 1% أن تضاعف حصتها من الدخل القومي أكثر من مرة، أما الشريحة العليا التي تمثل 1 في الألف فقد ضاعفت حصتها من الدخل القومي أكثر من 6 مرات. واليوم، وبشكل لم تعرفه أمريكا منذ العشرينيات، أصبحت هناك طبقة لا بأس بها تمتلك من الثروة ما يكفي لتشكيل سلالات حاكمة بالفعل. واستطاعت هذه الطبقة بوسائل عديدة أن تمزج بين الإسهامات المالية السياسية وعملية التشكيل الهاديء للثقافة مثل ترويج القيم الأرستقراطية أن توجد بيئة مفضلة لطموحات السلالات الحاكمة.

ثانيا، هناك التحالف بين هذه السلالات واليمين المسيحي المتشدد، لكن ما الذي يجعل الزعامات الدينية تنسج صداقات مع سلالة نخبوية؟، يؤكد فيليب على الجانب الشخصي أي مقدرة جورج بوش على إقناع الكثيرين من اليمين الديني المتشدد بأنه على الرغم من ولادته بملعقة ذهبية في فمه فهو واحد منهم، غير أن فيليب يقول: "هل يمكن أن يكون 75 إلى 80% من المؤمنين بحتمية (معركة الارمجيدون) قد صوتوا لبوش؟ يبدو ذلك". لكن وفي جميع الأحوال، فإنه يبدو الآن أن التحالف مع اليمين الديني المتشدد، هو كما يقول فيليبس، جزء محوري من القصة السياسية. لكن ماذا عن باقي الناخبين؟ هنا يأتي المرتكز الثالث لنظرية فيليب عن نجاح سلالة بوش وهو براعتها في ترويج النفاق، حيث "إن المحافظة المتعاطفة هي السياسة التي يستخدمها النفاق لإخفاء الرذيلة الاقتصادية".